عائشة عصمت تيمور

(١١)

شعرها الاخلاقيّ والدينيّ

أيتها السيدات والأوانس ،(١)

كنّا في المحاضرة السابقة وكأننا في ليلةٍ من ليالي الاعراس . لأن شعر عائشة الغزليّ كان يستحضرُ لنا نغمة القصب، ونقرة الدفّ ، وشدو الملحّن . أما اليوم فأرجو ان لا تشكين عبوس موضوعنا الذي ينتقلُ بنا من « مجلس الأنس الحي » إلى شبهِ خطبة يوم الجمعة في المسجد . فكأننا اليوم نقول مع عائشة

تركتُ الحبَّ لا عن عجز طولٍ ولا عن لوم واشٍ أو رقيبِ
ولا من روع زفرات التصابي ولا من خوف اجفان الحبيبِ
ولا حذر الفراق وخوف هجرٍ بهِ تجري المدامعُ كالصبيبِ
ولكني اصطفيتُ عفاف نفسٍ تقرُّ بصفوهِ عينُ الاريبِ

أما نحن فلم نكن مخيّرات في انتقاءِ موضوعنا ولكننا مرغمات عليهِ بحكم سياق البحث وتآلفهِ. وأما عائشة فتزعمُ انها «اصطفت» ذلك بدافع «عفاف النفس» ولماذا؟

وذلك لأني في عصرِ قومٍ بهِ التهذيبُ كالأمرِ العجيبِ

يمكن ان تتخذ هذا البيت حدًّا فاصلاً بين ما نظمتهُ التيمورية للمجاملة والتحدّي والرثاء والتعبير عن العواطف ، وبين ما نظمتهُ لتأدية صورة ما من رأيٍ لها في احوال المجتمع ، او تبصرٍ في شؤون هذا الناس وأخلاقهِ بين تقلبات الايام وطوارىء الزمان . ورأيها ذاك رأيٌ شائع لاسيما بين الشرقيين . على أننا يهمنا هنا منهُ أن شاعرتنا أخذت بهِ ولو من وجهة سطحية . إنَّ عائشة لم تتعمق أصلاً في فكرةٍ أو عاطفة . بل كانت تكتفي بالناحية المطروقة وترضى لها بالتعبير المألوف . ولكن لا ننسينَّ انها المرأة المصرية الوحيدة في عصرها التي أقدمت على ما لم تدرك أهميتهُ يومئذٍ ألوفٌ من النساء وألوفٌ من الرجال

(١) (المقتطف) هذا الفصل كالفصل الذي سبق من شعر التيمورية الغزلي القته نابغتنا مي محاضرة على السيدات الفضليات في جمعية الشابات المسيحية

ولقد ذكرت غير مرة في شعرها وفي نثرها ما بينها وبين وسطها من عدم التفاهم، وها كن أبياتاً تدل على مجهودها في سبيل الانطباق على ذلك الوسط والتفاهم واياه، في حين هو لم يبذل من ناحيته جهداً ولم يبد لملاقاتها اهتماماً:

عقدتُ عزمي وهم حلّوا عزائمهم وفي العزائم محلولٌ ومعقودُ
ما طابقوا حين لم يُبدوا مجانسةً ولا تشابه معدومٌ وموجودُ
أُبدي ائتلافاً ويبدون الخلاف، وقد غدا لهم في جيوش الهجر تجريدُ
وكم أقابلهم مستنجزاً، ولهم لدوء حظي، في الإعراض ترديدُ
لو للسعادة عين في مساعدتي ما كان لي ساعد بالطوق مشدودُ

هي تعني ان السعادة لو شاءت أن تساعدها لما أوجدتها مقيّدة بقيود هذه البيئة، خاضعة لنظام الوسط الذي يرهقها. وهنا نشأ تفهم انها لم تكن سعيدة. وسنفهم شيئاً فشيئاً انها كانت تتألم من هذا الانفراد الادبي، وفي هذا المجهود الذي كانت تؤدّيه في نشاط ورجاء فيثوب عليها مقاومة وفشلاً. فتراها تعطينا هذه النصيحة غير الجديدة:

لا تفرحنّ بدنيا أقبلت وصفت بكلّ ما ترتضي، واحذر عواقبها!

وعلام هذا التحذير؟ لان لا شيء يدوم، فيكون خير شيء وسط هذا التحوّل في العسر واليسر انتهاج طريق العفّة والصلاح:

ما الحظّ إلاّ امتلاك المرء عفّتهُ وما السعادة الاّ حسن اخلاقِ

وهي تعطينا بعض النصائح لتقول لنا تقريباً ما هي هذه الأخلاق الحسنة. فمنها عدم الركون الى المملّقين: وهو معنى مألوف — ومنها الاقلاع عن البخل وعدم التعلّق بالمال:

ربُّ الدراهم أحصاها وعدّدها في حصن أكياسهِ ألفاً على ألفِ
والحمد لله إذ عدّي لسبحتي وعن سواها تراني قاصر الطرفِ

ومنها حفظ اللسان لأننا جميعاً بشرٌ تشوّهنا العورات الاخلاقية:

احفظ لسانك من ذمّ الانام ودَعْ أمرَ الجميع لمن أمضاهُ في القِدَمِ
معايبُ الناس لا يكبرن عن غلطي إذا عمتُ بها في محفل الهِمَمِ

ومنها صيانة النفس:

وما احتجابي عن عيب أتيتُ به وإنما الصون من شأني وغاياتي

ولو كنا في مجال المناقشة لاثبتنا ان الصون لا يقومُ باسدال الخمار كما ان التبدّل

ليس قائماً بالسفور . وإنما الصيانة والعفّة ملكتان نبيلتان من ملكات النفس تخضع لها المرأة بصرف النظر عن الزيّ في هندام رأسها وجسدها . وسنرى عند ما ننظر في آراء أخرى لعائشة انها إن هي فاخرت بالحجاب في شعرها فهي تشكوهُ في نثرها ، وتقول انهُ حرمها مجالسة أهل الفضل والأدب وحال دون استزادتها مما ترغبُ فيهِ من العلم والمعرفة. أما الآن فحسبنا الاصغاء الى بقية مفاخرتها بالحجاب . هي تتفاخر ونحن نرضى بهذه المفاخرة التي نحبُّ ان تكون في صميم معناها نشيداً للصيانة النسائية النفسية ، وتمنى وجودها وبأرق درجاتها عند كلّ امرأة وفتاة . وهذه هي أبيات المفاخرة الوحيدة في شعر عائشة :

بيد العفاف أصون عزّ حجابي ... وبعصمتي أسمو على اترابي
وبفكرةٍ وقادةٍ ، وقريحةٍ ... نقّادةٍ قد كمّلت آدابي

ومنها : ما ساءني خدري ، وعقد عصابتي ... وطراز ثوبي ، واعتزازُ رحابي
ما عاقني خجلي عن العليا ، ولا ... سدل الخمار بلمّتي ونقابي
عن طي مضمار الرهان إذا اشتكت ... صعب السباق مطامح الركّاب
بل صولتي في راحتي وتفرّسي ... في حسن ما اسمى لخير مآب

* * *

هذه نيات صالحة وآراء طيبة . ولكن لو خطر لامرىءٍ ان يقول للشاعرة : « كلامك يا سيدتي على الرأس والعين ولكني أرى انهُ لا يتطابق والواقع . فالشعر الاخلاقي غير الشعر الغزلي . هذا يلقي إلينا بما يريد من العواطف والخيالات والمبالغات فيروقنا ونطربُ لاثره سواء صدّقناهُ أو كذبناهُ . أما الشعر الاخلاقي فشيء آخر . إنهُ يلقي عليّ درساً ويخطّ لي طريقاً . في الحق ان الناقشةُ عند ما يقول لي أن السعادة في حسن الاخلاق ، وان أحفظ لساني عن ذمّ الانام ، الى آخر ما اغدقتهُ عليّ من النصائح . فأنا الساذج صالح لم أجن إثماً ، ولا آذيتُ أحداً . أعبد الله وأسالمُ الناس واتكل على ذاتي وأعمل ليل نهار لأتبادل واخواني البشر منافع العمل وحسناته . ورغم ذلك فلستُ سعيداً . في حين ان فلاناً الذي لا يراعي في معاملته عدلاً ، ولا ذماماً ، ولا كرامةً ، ولا حقّاً — وهو سيء الاخلاق بشهادة الذين أرغموا على معاشرته ، فهو مع ذلك سعيد تبسم لهُ الدنيا ، ويساعدهُ الحظّ ، في جميع شؤونه . إذاً لماذا تنبئين لي ما لا يتطابق والواقع ؟ وكيف احتمل

السعادة حولي يتمتع بها الجميع وأنا محروم ؟ وهؤلاء الناس الذين يمزّقون نفسي بكلامهم وافترائهم وتطاولهم ، ترى ماذا أجيبهم ؟

عبثاً نلقي على شاعرتنا هذه الاسئلة فهي لا تعطينا عنها جواباً . وانما تحدثنا عما فعلت هي عند شعورها بظلما تتألم منهُ ، فكانت لها النوائب وسيلة للتشدُّد والتقوّي والتغلُّب على النفس المتألمة وعلى العالم الظالم :

كم قابلتني ليال وجهها سمجٌ — بطيئة السير ترمي بالشرارات
لاقيتها بجميل الصبر من جلدي — وبت أسقي الثرى من غيث عبرات
كم اقعدتني أيامٌ بصدمتها — وقمتُ بالعزم مشهور الغايات

وأما كلام الناس ، أغبياء كانوا لا يدركون فضلها أم حسّاداً يتحرّقون من تفرُّدها ، فانها تحتملهُ بتجلُّد ، وأدب ، ولا تشكوهم لسواهم لانها على خبرة بالاهتمام المصطنع الذي قد يتكلّفونهُ وهم في سرائرهم غافلون عنهُ أو مبتهجون . وإن تمثّلوا الاهتمام والعطف تظاهرت هي بالسرور وحدّثتهم عن «ابتهاجاتها» :

وكم حليفة صدر إذ تمتحني — تقول سعيك مذموم النهايات
فاخفض الطرف من حزن أكابدهُ — وأهمل الدمع من تلك المقالات

ومنها : ومذ أتت عذّلي تبغي مصادرتي — جوراً ، منحتهمو أسنى الكرامات
وكلّما عدّدوا ذنباً رُميتُ بهِ — بسطتُ للعفو راحات اعترافاتي
ولم أفهْ لذوي ردّ لمرفقي — انّ الحبيب حبيبٌ في المسرّات
أقوم والضيم تطويني نوائبهُ — طيّ السجلّ ، ولم أجمعْ أنّاتي
أخفي الاسى إن حسودٌ جاء يسألني — لا ين تسعى ؟ وأروي لابتهاجاتي

ولكن لماذا هذا الاحتمال ؟ ولماذا يكون بين الناس المحظوظ والمغبون ؟ إنّ الجواب عندها امتثال كئيب :

أقولُ للصبر لاعتبٌ على زمنٍ — أعطي لا بنائهِ أسمى العطيّات

فيحدّثها الصبر بملخّص حكاية تقلّب الأيام ، فتتذوّق هذا الحديث كأنما تجد فيه بعض التعزية :

فقال مهلاً ، ولا تغرُرْكِ شوكتهم — فالصحو يعقبهُ سودُ الغمامات
فليس كلٌّ ملوم دام مكتئباً — وما السعيد سعيدٌ للملاقاة
تدرهم غرّهم جهلاً وما علموا — انّ الزمان قريب الالتفاتات

وهذه المؤاساة التي تضعها على لسان « الصبر » لم تفلح في تعزيتها وتطمين خاطرها على ما يظهر ، لانها في آخر القصيدة تعود الى الشكوى والتضرع الى الله :

ربي إلهي معبودي وملتجئي | اليك أرفع بثي وابتهالاتي
قد ضرّني طعن حسّادي وانت ترى | ظلمي ، وعلمك يغني عن سؤالاتي

ومنها : فكيف أشكو لمخلوق ، وقد لجأت | لك الخلائق في يسر وشدّات
فيا لها من جراح كلما التأمت | أعيت طبيبي رغماً عن مداواتي

وهكذا نحن من شعر عائشة الاخلاقي في دائرة صغيرة لا نقع فيها على متين الحجة او مكتمل الرأي القائم بنفسه . ولكن نلقى فيها الكلمات المسكّنة من الصبر ، والتجلُّد ، والانذار بان الايام متقلبة الالوان لا تدوم على حال . ودفعاً للالم تتمنّى عائشة ان تتجرّد من كلّ شعور فلا ترجو ولا تغتبط ولا تنتظر السعادة كيلا تفاجأ بالفشل والقطيعة ، وتأبى بهذا البيت :

فلا تقل لي متاع وهو عاريةٌ | واليأس عندي راحات اعترافاتي

على ان الراحة الكبرى عندها هي في الصلاة والالتجاء الى الله الذي هو وحده يسعد ويشقي . وهذه العاطفة تصل بين شعرها الاخلاقيّ وشعرها الدينيّ فتجعل منهما مزيجاً واحداً كما رأينا

***

لقد تغذّت الانسانية منذ فجر تاريخها بعواطف اوّلية قليلة منها استمدّت كلّ وحيها وما فتئت هي نفسها تسوقها في جهادها . ومن تلك العواطف الخيّر ومنها السيّيء . ومن مظاهرها ما هو صالح ومنها ما هو طالح . وفي مقدمة تلك العواطف نجد حبّ الذات ، والفرح والحزن ، والامل واليأس ، وحبّ الاتكال وحبّ المخاطرة . ومن امتزاج هذه العواطف في نفوس الافراد وفي نفوس الجماهير تتكوّن الانفعالات والرغبات والشهوات التي تتلاطم فيما بينها . فينتج عن تباينها ومضيّها في استرسالها ما نسميه التطور الانسانيّ الذي نشهد منهُ هذه الصور الرائعة دهراً بعد دهر في ازدهار الحضارات ، وفي كلّ ما يهتدي اليهِ الانسان من اكتشاف علميّ واختراع آليّ ، وابتكار أدبيّ وفنيّ ، ونظام دوليّ واجتماعيّ

ومن تلك العواطف الاساسية الميل الى الاخلاق العالية الذي نجد شيئاً منهُ حتى عند أحطّ الجناة غريزة . ومعهُ العاطفة الدينية التي تتلوّن بشتى الالوان على تنوع

النفوس ، حتى انها لتبدو احياناً في مظهر نزعة « كفراً » . على انها عريقة متأصلة في قلب الانسان الذي يروعه هذا الكون العظيم فيتساءل من ذا الذي أنشأه . ويدهشه النظام الدقيق في هذا الفلك الدائر فيبحث عن الغاية التي من اجلها ينفذ النظام . ويجزع مما يهدده من حاجة ومرض وعجز وألم وموت فيلجأ الى قوة عليا تهيمن على عوز البشر وبؤسهم ويبتهل اليها مستلطفاً لعوامل رحمتها واحكام حكمتها . هذه هي البواعث الاولية للشعور الديني الذي يسلك في كل نفس بقالبها الخاص . ولقد كانت العاطفة الدينية حية كل الحياة عند شاعرتنا ، وقد سمعت من شقيقها المفضال احمد تيمور باشا انها كانت تقية تصلي وتصوم وتقوم بكل الفرائض الدينية. على أن لا عمق في شعرها الديني ولا روعة . فهو كسائر شعرها يتناول الناحية المألوفة للجميع . وهو يمتزج بالعاطفة الاخلاقية من حيث الاعتراف بالذنوب والرغبة في التوبة . ومن ثم يبدو فيه الاستعداد لساعة الرحيل . وذكر هذه الساعة يحملها على وصف بعض ما يجول في القلب من الاطماع حتى عند سرير المحتضر امام حشرجة النزع ، وعند هيل الثرى على نعوش الاقربين . وفي هذه الابيات سخرية طفيفة في مس من الكآبة على ما يبذله الحي من مجهود لحشد المال :

أراك بلحتى ، يا شيب ، عظتني وقد حان الرحيل غداً ، لعلي !
فأول ما ترى حدث مهول تهيل ثراه كف أخ وخل
وقد رجعوا كأن لم يعرفوني وهم امي وأبنائي وأهلي
وتشتغل البنون بقسم مالي . أنا من حشدهم في عظم شغل

وليست بغريبة عن حيرة النفس وترددها بين ما يخالجها من عوامل الاغراء بملذات العالم وبين نزعتها الى البر والتقوى :

كيف المسير الى أرض المنى وأنا بطاعة النفس في قيد الضلالات ؟

والجواب في الابتهال الذي أنشأه في شعر عائشة الديني ، والذي جعلني أن أنعت هذا الشعر بالابتهالي :

ان كان عصياني وسوء جنايتي عظما ، وصرت مهدداً بجزائي
ففضاء عفوك لا حدود لوسعه وعليه معتمدي وحسن رجائي
يا من يرى ما في الضمير ولا يرى أني رجوتك أن تجيب دعائي

يا عالم الشكوى وحرّ توجّعي داني عظيم القرح ، جد بدوائي !
بحبيبك الهادي سألتك دلّني لعلاج امراضي وجلب شفائي

وهذا الشعر الابتهاليّ لشاعرة مسلمة مصرية عربيّة يرجع إليّ ذكر القديسة تريزا الأوربيّة الاسبانية المسيحيّة التي عاشت في القرن السادس عشر وأسست رهبنة الراهبات الكرمليّات . وهي التي لُقّبت « بالعذراء السارونيّة » نسبة إلى الملائكة السارونيم لفرط تقواها ، ونقاء نفسها ، وروحانيتها الحارّة وشغفها بالسيد المسيح الذي كانت تتخيّل انهُ يتجلى لها في ساعات الانخطاف واروءيا ويخاطبها . وقد نظمت شعراً ابتهاليًّا جميلاً في لغتها الاسبانية الجميلة ، اشهرهُ نشيد قصير ترجو فيهِ الله ان يمن عليها بالمنون لتتجرّد من ثوبها الترابي فتراه وجهاً لوجهٍ . فهي في ذلك النشيد الملتهب تقول :

نشيد القديسة تريزا

التعريب	الاصل الاسباني
أحيا دون ان احيا في نفسي وانتظر حياة هكذا رفيعة حتى اني لأموت لأني لا أموت ! ..	Vivo sin vivir en mi Y tan alta vida espero Que muero porche no muero ! ..
واني لبريد في كاني ان ارى إلهي لديّ سجيناً حتى، اني لأموت لأني لا أموت ! ..	Mas causa en mi tal pasion Ver a dios mi prisionero Que muero porche no muero ! ..
انظر كيف اذوب شوقاً رؤياك، ولا طاقة لي على الحياة بدونك حتى اني لأموت لأني لا أموت ! ..	Mira que muero per verte Y vivir sin ti no puedo Que muero porche no muero ! ..
فتى يتيسّر لي ، يا إلهي ، ان أقول القول الفصل بأني أموت لأني لا أموت ! ..	O mi Dios ! quando sera Quando yo diga de vero Que muero porche no muero ! ..

ولكن الفرق بين الشاعرتين ان القديسة المسيحية وابنة يرضى الله عنها ، عاملة بحبه لها ، وانما تمذبها قيود الجسد التي تشد وثاقها بالارض وتحول دون فناء روحها في روح الله . في صيحتها شيء من التدلل على المحبوب ، وفيها كذلك صدحة الشوق ونشوة الظفر . اما التيمورية فذليلة في لهجتها . ولكأنها كانت تيأس لولا رحمة الله الواسعة ولولا شفاعة النبيّ الكريم الذي تلوذ بجاه ، وتترنم بمدحه وبتمجيد أمته :

طه الذي قد كسى إشراق بهجته وجه الوجود سناء الرشد والكرم
طه الذي كملت أنوار سنته تيجان أمته فضلاً على الامم
نم الحبيب الذي منّ الرقيب به وهو القريب لراجي الجد والنعم
روحي الفداء ، ومن لي ان أكون له هذا الفداء ، وموجودي كمنعدم
وما هي الروح حتى افتديه بها وهي الغمائم بغار الظلم والظلم

ومنها: ولا يحيط به مدح ولو جعلت جوارحي ألسناً ينطقن بالحكم
وما سوى عزّ كوني بعض أمته ذخراً أفوز به من زلة الوصم
إلا التهامي عفواً بالشفاعة لي من خاتم الرسل خير الخلق كلهم

* * *

رأينا من هذه المقابلة الصغيرة ، أيتها السيدات ، كيف انه كما يتلاقى البشر في ابحاث العلم وضروب الفنّ والفلسفة والحكمة ويتفاهمون بالحبّ وبالمعاني الانسانية الرفيعة ، كذلك تتشابه عواطف البر والتقوى في قلوب الصالحين

امرأتان مختلفتان ديناً وامة ، تعيشان على تباعد ثلاثة الاف عام في بيئتين إحداهما غريبة عن الاخرى كل الغربة ، وهما رغم ذلك تناجيان إلهاً واحداً لا اله الاّ ه ، وتصليان صلاة واحدة حافلة بالامل والاتكال في لغة الغرب والشرق على السواء

وبين ما يبرز الآن في الشرق من العوامل الجديدة تجدد الدعوة الى وحدة قومية ووحدة انسانية مع احترام العقائد الدينية ، وترك الحرية لكل احد يتمتع بها دون التعدي على حرية اخيه ودون ان تكون هذه العقائد واحترامها عاملة في تفريق الكلمة وتمزيق الشمل . واني لاحسبها لعائشة مفخرة ان تكون جاءت بقول له فوق قيمته الادبية والتاريخية ، ما يستمد منه هذه المقابلة القيمة ، وقد أتاح لنا فرصة للالماع الى هذه الوحدة النبيلة التي يتفشى الآن حبها في الشرق ، والتي يتصافح عندها بنو الانسان فضلاً عن بني الاوطان (مي)